التودد للمجتمع فى القرار السياسى فى العصر المملوكى "قراءة فى البعد الإجتماعى وآليات الإسترضاء الشعبى لسياسة سلاطين المماليك "

د/ مصطفى علي إبراهيم دويدار
دكتوراه تاريخ إسلامي –كلية الآداب –جامعه طنطا

سعى معظم سلاطين المماليك في العصرين: البحري والجركسي – جاهدين – إلى محاولة التودد لعنصر المجتمع وتحديداً الطبقات المهمشة، تفاديًا لإحداث اضطرابات وثورات داخلية ينتج عنها زعزعة استقرار أمور الحكم قد تتسبب في عزل السلطان نفسه من الحكم ، والمجيء بسلطان آخر يكون محط رضا واحترام وتقدير عند تلك الفئات ، وقد بدأت تلك السياسة منذ قيام الدولة المملوكية في عهد شجر الدر التي سعت جاهدة للتودد لأصحابها كي يتقبلوا ذلك ، الأمر ولكن رغم محاولاتها المتعددة لم تجد رضا واستحسان من أرباب الطبقات المهمشة ، كما عمل أيبك على اكتساب ودهم باللين تارة والشدة تارة أخرى ، ونهج نهجه باقي سلاطين المماليك ، ونضرب مثال علي ذلك : عندما تولي الظاهر بيبرس الذي عمل على كسب حب وثقة الشعب المصري له عن طريق إسقاط ما أحدثه سيف الدين قطز من ضرائب من أجل مواجهة المغول، وكتب به مرسومًا، وقد كانت تلك الضرائب أكبر الأثر السيء في حال الناس فقد انكشف حال الفقراء[١]، فيقول ابن عبد الظاهر في ذلك "أن الناس هلكوا من الظلم فأبطل التقويم، والتسقيع ، وكذلك الخبز والزكاة المعجلة والجوالي المعجلة والتبرع والراجل، وكانت جملة ذلك ستمائة ألف ديناراً "[٢].

فضج الناس إليه بالدعاء[٣] وقاموا بالزيادة في الزينة، كما أقام دار العدل على ما كانت عليه وأقام فيها الأمير فارس الدين الأتابك[١]بالإضافة لما– سبق– فقد كان الظاهر بيبرس حريصاً كل

---

(١) شافع بن علي الكاتبي: حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز عبدالله الخويطر، ط٢، الرياض ١٩٨٩م ، ص ٣٣؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، القاهرة ، ١٩٨٥م ، ص ٢٩٤.

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦م ، ص ٧٧.

(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين ، ص ٢٩٤؛ ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ط٣ ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، ٢٠٠٨م ، ج١، ص ٣١١.

الحرص على ألا يجعل بينه وبين الفئات المهمشة حاجزاً أو حاجباً ويظهر ذلك عندما توفي الأمير حسام الدين ابن بركة خان وحضر السلطان جنازته ومشى فيها مع الناس فقد دل هذا على تواضع وأخلاق الظاهر بيبرس مع الرعية[٢].

كما راعى الظاهر بيبرس حال الفقراء وكان حريصاً علي ذلك كل الحرص- فإذ به يأمر بتوفير الدفن المجاني للفقراء كذلك قام بتأسيس ميضاء خارج باب زويله لتغسيل الغرباء حسب الشريعة الإسلامية ويتم تجهيزهم للدفن ولكن مع مرور الوقت أصبحت قاصرة على أهل القاهرة والذين يموتون ويتركون بلا دفن لأي سبب من الأسباب وكان يقدم الأكفان كذلك مجاناً[٣].

وعلي هذا النهج سار المنصور قلاوون ؛ فعندما تولى السلطنة كان لا يريد أن وعلي هذا النهج سار المنصور قلاوون ؛ فعندما تولى السلطنة كان لا يريد أن يتشدد مع العوام حتى لا يحارب في جبهتين : جبهة الأمير سنقر الأشقر وإعلان عصيانه في بلاد الشام ورفضة تولي المنصور قلاوون الحكم ، وجبهة أرباب الفقراء بمصر، ويتضح ذلك عندما امتنع قلاوون عن الركوب والخروج لمدة بسبب تغير قلوب المماليك الصالحية والظاهرية ومكاتباتهم للأمير سنقر الأشقر في دمشق، فعندما علم السلطان بهذا انتبه وخاف علي نفسه من محاولة اغتيالهم له وأخذ في التدابير عليهم[٤]، ولقد فطن المصريون لهذا الأمر فأرادوا أن يزيدوا من هذا الخوف فكثر قول العامة من الفقراء وجهرهم بقولهم في الليل تحت القلعة بأصوات عالية (يا أبو عيشة اركب وكن طيب، يا أبو عيشة) وصاروا يرمون رنك السلطان في الليل بالقاذورات، ورغم ذلك عمل قلاوون على كسب ود وعطف المصريين بأن صَرف النصارى من ديوان الجيوش وأقام بديلاً منهم كُتَابً مسلمين ، فاستقر أمين الدين شاهد

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ٧٧.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧م ، ج١، ق٢، ص ٥٠٠.

(٣) ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر بيبرس، تحقيق: ، ج٢أحمد حطيط ، الذخائر ، ع ١٩٠، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠٠٩م ، ص ٣٠٤؛ ابن الجزري: : تاريخ حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجذري، تحقيق :عبدالسلام تدمر ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٩٨م، ج١، ص ٢٨٤، ٢٨٥؛ آدم صبرة: الفقر والإحسان في عصر سلاطين المماليك ١٢٦٠ / ١٥١٧م ، ترجمة قاسم عبده قاسم المجلس الأعلى للثقافة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، ص ١٥٦.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص ٦٧٢.

صندوق النفقات في كتاب الجيش عوضاً عن الأسعد إبراهيم النصراني[١]، وهذا الموقف جعل بعض المستشرقين يتهم قلاوون بأنه أقل تسامحاً مع المسيحين من الظاهر بيبرس لأنه بذلك حرمهم من الوظائف العامة[٢] ،.

وفي عام ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م نزل السلطان إلى خانقاة سرياقوس ووقف أمامها بفرسه وسأل صوفيتها أن يختاروا شيخاً لهم بعد وفاة شيخهم[٣] فلم يختاروا أحد، وهنا قام الناصر محمد بتعيين الركن المطلي خادم المجد الأقصرائي المتوفي[٤].

وعندما نزل السلطان إلى خليج الزعفرانه على سبيل التنزه وكان معه لفيف من الأمراء، فأقام هناك حتى آخر النهار، فلما عاد وصل إلى الحسينية وجد في طريقه جنازة وهي لامرأة غريبة ليس معها أحد إلا الحمالين فنزل من علي فرسه هو ومن معه من الأمراء فصلوا عليها في قارعة الطريق وكان هذا من النوادر[٥].

وكيفما كان الأمر فقد نزل السلطان بعد ذلك من القلعة وتوجه إلى منشية المهراني ونصب هناك الخيام ونادى في الناس قاطبة أن يخرجوا للحفر فلم يبق أحداً إلا وقام به ، وذكرها أبو المحاسن فقال:" فلم يبقى من أمير ولا مملوك ولا تاجر ولا سوقي حتى خرج إلى الحفير وسار يخرجون طوائف طوائف ومعهم الطبول والزمور وغلقت الأسواق قاطبة وكان يوماً مشهوداً""، وهناك قام السلطان بمد الأسمطة الجليلة للأمراء والأعيان[٦].

وكذلك الحال مع كما كان السلطان الظاهر جقمق حريصاً كل الحرص على ترضية الفقراء وعامة الناس وظهر ذلك من خلال ما ذكره السخاوي في سرده لتلك الحادثة فيقول : "أنه ليلة الجمعة الثامن من محرم سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م سقطت منارة المدرسة الفخرية القديمة التي بسويقة الصاحب

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٦٦٨.

(٢) السيروليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين، سليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص ٦٦.

(٣) هو الشيخ مجد الدين موسى بن أحمد بن محمد الأقصرائي؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق حسين نصار، ط٢ ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، ٢٠٠٥م ، ج٩، ص ١٤٥

(٤) أبو المحاسن: النجوم، ج٩، ص ١٤٥؛ ستانلي بول: سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن، وعلي إبراهيم حسن، الهيئة العامة للكتاب ، ط١، ١٩٩٧، ص ١٨٣.

(٥) ابن إياس: بدائع ، ج٣، ص ٦٣.

(٦) ابن إياس: بدائع، ج١، ق٢، ص ٢٠، ٢١.

في الشارع الثالث لسوق الرقيق وهي قديمة جداً حيث كان تم بناؤها عام ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩م وكانت تلك المنارة قد مالت قليلاً فحذر الناس بالربع المجاور لها وبالفندق الذي بأسفلها وذلك من جملة أوقافها من سقوطها فتهاونوا في ذلك بحيث لم ينتقلوا إلى أن سقطت مما أدى لكثير من الأموات من الرجال والنساء والأطفال وغيرهم يقال فوق مائة نفس ، بالإضافة عما تلف من أموال كثيرة، ولما بلغ ذلك السلطان تغيظ منه وطلب الناظر على المدرسة وهو نور الدين علي القليوبي أحد نواب الشافعية ومعه أمين الحكم أيضاً فلما حضر إلى السلطان سبه وشتمه بأقبح الألفاظ وأمر بتوسيطه فشفع فيه من التوسيط بعض الأمراء ونزل معه وألزموه بمال كبير لعمارة المنارة وتوابعها مع كونه في غاية الفقر[١].هذا بصفه عامة أما عن صور هذا التودد فتتمثل في ما يلي :.

- عطايا وصدقات سلاطين المماليك المخصصة للفقراء :-

لقد كانت المنح والهبات والعطايا واحده من أهم الطرق والأساليب التي استخدامها سلاطين المماليك لجذب المهمشين لهم وبخاصه العامة منهم ، بهدف استقرار الأمور الداخلية للبلاد، ولقد فطن معظم سلاطين المماليك لذلك فكانوا ينتهزون أي موقف لمنح الفقراء العطايا والهبات ، وقد ظهر ذلك عندما ركب الملك الظاهر بيبرس من قلعة الجبل بشعار السلطنة لخارج القاهرة ودخل باب النصر فترجل الأمراء ومشوا بين يديه إلى باب زويله ثم ركبوا للقلعة وقد زينت القاهرة ، وقام الظاهر بيبرس بنثر الدنانير والدراهم على العامة[٢]

كما كانت بعض الإحتفالات الخاصة بالقصر مناسبة لهذه العطايا فعندما تم الإحتفال بختان السعيد بركة بن الظاهر بيبرس مع عدد من أبناء الأمراء وكان هناك احتفالاً كبيراً لهذه المناسبة في القاعة وكان من ضمن الاحتفال أن تمنح مجموعة من الأيتام وأبناء الفقراء ملابس ويحضرون للقلعة لختانهم هم أيضاً مع السعيد بركة وأبناء الأمراء، فكان عدد الصغار الذين حضروا ألفاً وستمائة وخمس وأربعين طفلا[٣]. وهنا يتضح كيف نجح الظاهر بيبرس في استغلال المناسبات المختلفة حتي يتقرب

---

(١) التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق لبيبة إبراهيم مصطفى، نجوى مصطفى كمال، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥م ج١، ص٢٤٦، ٢٤٧.

(٢) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ، ص ٧٢؛ المقريزي: السلوك ، ج١، ق٢، ص ٤٤٣، ٤٤٤.

(٣) أدم صبرة، الفقر والإحسان ، ص ٩٢، ٩٣.

ويتودد للمهمشين ففي عام ٦٦٣هـ / ١٢٦٣م عندما مرض الظاهر بيبرس قام الظاهر بيبرس بتوزيع مبلغ كبير من المال على الفقراء من أجل طلب الشفاء من الله سبحانه وتعالى[١].

كما قام بالكثير من العطايا والصدقات للفقراء بالقاهرة ومصر بصفة خاصة ففي شهر رمضان كان يأمر بصرف كمية كبيرة من الخبز واللحم بكل ليلة من ليالي الشهر العظيم[٢] ، وقام بتسجيل أسماء الأرامل من الفقراء وفرض لهن رواتب وعطايا، كذلك كان السلطان لاجين حريصاً على تخفيض ضغط الحياة على الفقراء ووعدهم بالتسامح في جمع الضرائب فإذا به يسقط بعض الضرائب عن بلقس[٣] الأشراف [٤] .

وفى ذات السياق فقد تصدق السلطان برقوق بذهب كثير فاجتمع بالإسطبل حوالي خمسمائة فرد جعل لكل منهم خمسين درهماً وفي نفس الشهر جلس السلطان برقوق لتفريق الصدقة على بعض أفراد المهمشين، فاجتمع خلق كثير لا يمكن حصرهم، ولكن نتيجة لشدة الزحام وكثرة عدد الفقراء مات من بينهم حوالي سبعة أفراد من كثرة هذا الزحام ، فأمر السلطان بأن يتولى تكفينهم الوزير وحاجب الحجاب[٥].

وعندما توجه السلطان إلى بر الجيزة عمل كل يوم طعاماً للفقراء تفرق فيه اللحم والمرق والخبز فكان عدد الفقراء الذين أخذون منه نحو خمسة آلاف فرد، ومن فاته الأخذ من هذا الطعام، أخذ من أرغفت الخبز، فإن فاته الخبز واحتسبه الطعام أخذ عوضاً عن الخبز نصف درهم، وإن فاته الطعام والخبز أخذ درهماً ونصف الدرهم[٦].

وقد كثرت صدقات السلطان بهذا الشهر وتزايدت تفريقه الدنانير الذهبية والدراهم الفضة والخبز والطعام على الفقراء والمساكين وغيرهم[٧] ، كذلك في عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٤م اهتم السلطان برقوق بعمل

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق١، ص ٥٣٨ ؛ آدم صبرة، الفقر والإحسان ، ص ٩٥.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٥٨٣؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، القاهرة ، ١٩٨٥م ، ص ٣٩٨.

(٣) هي قرية من قرى مديرية القليوبية شمال بهتيم وهي ناحية مركز قليوب ؛ شافع ابن علي الكاتبي: حسن المناقب ، ص ٧٤.

(٤) شافع ابن علي الكاتبي: حسن المناقب ، ص ٧٤، ٧٥؛ إيمان عطاطة : دور نساء العامة فى مصر فى العصر المملوكى ، رسالة دكتوراه كلية الآداب جامعة طنطا ، ٢٠١٨ ، ص ٤٧٨.

(٥) المقريزي: السلوك ، ج٣، ق٢، ص ٨٥٥.

(٦) المقريزي: السلوك ، ج٣، ق٢، ص ٨٥٦

(٧) المقريزي: السلوك ، ج٣، ق٢، ص ٨٥٧.

بعمل الخبز الذي يفرق على الفقراء وكان قدره عشرون أردباً من القمح تصنع خبزاً ،وتم توزيعه علي فقراء القاهرة ومصر وأهل السجون وسكان القرافة فكفى الله بهذا الخبز أمناً عظيماً بحيث لم يعرف أحداً مات في هذا الغلاء من الجوع، واغتنى جماعة منهم لدرجة أنهم كانوا يأخذون الخبز من عدة مواضع مختلفة ثم يقومون ببعيه للناس[١] .

وتكرر الأمر مع الناصر فرج بن برقوق عندما رسم للفقراء بمال كثير تفرق عليهم فاجتمع تحت القلعة خلق كثير وتزاحموا لأخذ الذهب فمات من شدة هذا التدافع والازدحام نحو سبعة وخمسين شخصاً ما بين رجلُ وامرأة[٢] ، ومع بداية عام ٨١٩هـ/ ١٤١٥م قام السلطان بالتفريق على الفقراء المنقطعين في الزوايا والجوامع مبلغ نحو أربعة آلاف ديناراً ، أضاف على ذلك نحو ألف أردب من القمح وكان القمح في ذلك الوقت قليلاً[٣] وأمر بتفريق الأموال على الأرامل والمساكين فكان نصيب الفرد منهم لا يقل عن خمسة دراهم مؤيدية[٤] من الفضة[٥].

وفى ذات المنحى فعندما افتتح برسباي مدرسته في شهر رجب أقام مأدبة ضخمة حضرها أفراد الدولة من الجنود والمماليك ودعا إليه عدداً من الفقراء والضعفاء وبعد الانتهاء قاموا بجمع البقايا التي أخذت في أكياس للناس من العامة [٦] ، وكذلك في عام ٨٨٥هـ / ١٤٨١م لم يكتف قايتباي بإعطاء الهدايا للخليفة وقاضي القضاة وإنما أعطى أيضاً للأيتام والأرامل والضعفاء والصوفية والمشايخ والعجزة والفقراء ، وكذلك في شهر رجب ٨٧٧هـ/ ١٤٧٣م وقف للسلطان في جماعة من الفقراء يقصوا عليه

---

(١) المقريزي :السلوك ، ج٣، ق٢، ص ٨٥٣، ٨٥٤.

(٢) ابن إياس: البدائع، ج١، ق٢، ص ٥١٢.

(٣) ابن إياس: البدائع ،ج٢، ص ٢٥.

(٤) هي نقود أصدرها السلطان المؤيد شيخ المحمودي سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م ونادى في الناس بالتعامل بها في القاهرة ولم تذكر المصادر صراحةً كما تساوي تلك النقود. المناوي: النقود والمكاييل والموازين، تحقيق رجاء محمود السامرائي، سلسلة كتب التراث (١٠٧)، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، العراق،١٩٨١م ص ١٠٦، ١١٥؛ إيمان عطاطه: نساء العامة، هامش ص ٤٧٩.

(٥) المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص ٣٤٢؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٤٠؛ آدم صبرة: الفقر والإحسان: ص ٩٣.

(٦) آدم صبرة : الفقر والإحسان، ص٩٣.

القصص فرسم لغالبهم بديناراً ، وأمر لرجلٍ مقطوع اليدين بثلاثة دنانير[١]، وأيضاً في شهر شعبان أمر السلطان للفقراء مبلغ ثمانمائة ديناراً تفرق عليهم من الإسطبل السلطاني[٢].

نجد أيضاً أن السلطان الغوري قد نزل وفي شهر جماد الآخر ٩١٧هـ /١٥١١م من القلعة وشق القاهرة وأمامه ولده فزينت القاهرة، واستمر حتى مسجده الذي أنشأه فكشف عليه وعلى المدرسة ثم قام بالإنفاق على الصوفية : والفراشين والبوابين وجميع من يعمل في المكتب والعمل على المشايخ لكل واحد عشرة أشرفية ومشى على قدمه من باب زويله حتى جامعه وارتفعت له الأصوات بالدعاء وانطلقت له الزغاريد وكان يوماً مشهوداً[٣].كما قام الأشرف قنصوه الغوري بتفريق نحو ثلاثة آلاف ديناراً على الفقراء من المهمشين فكان نصيب كل إنسان سواء كان امرأة أو رجلاً دينارًا أشرفيًا ذهبيًا[٤]. ذهبيًا[٤].

وعندما يمرض السلطان أم أحد أقاربه يسارع بتوزيع العطايا والهبات علي الفقراء يبغي من ذلك طلب الشفاء من الله سبحانه وتعالي، فقد سعي قلاوون للتودد إلى فقراء الدولة والصوفية فنجده في بعض المواقف يعمل على طلب دعوتهم له، فعندما مرض ابنه الملك الصالح قام بتوزيع الصدقات على الفقراء، وطلب من الشيخ الصوفي محمد المرجاني أن يدعو لابنه [٥] ، وعندما كان الأشرف برسباي يعاني من آلام مبرحة في معدته فقام بتوزيع الصدقات على الفقراء. كما قام بتوزيع الصدقات على أهل القرافة وكانت هذه الصدقات نحو ثلاثون ألف دينار[٦].وعندما تفشى الوباء ومرض أبنه يوسف ولي عهد الأشرف برسباي وأصبح فريسة لهذا الوباء فاشتد قلق أبيه عليه فقام بتوزيع ما يعادل وزن ابنه فضة على الفقراء[٧] ، وفي سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٨م كان السلطان خشقدم يعاني من مرض فقام فقام ببيع أحد خيوله لكي يقوم بتوزيع هذا المال على الفقراء[٨] ، كما قام السلطان الأشرف قايتباي

---

(١) الصيرفي: إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م ، ص ٣٧٩.

(٢) الصيرفي: أنباء العصر، ص ٣٩٩.

(٣) ابن إياس: بدائع، ج٤، ص٩١٧.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ٩٤؛ إيمان عطاطة : دور النساء، ص ٤٧٩.

(٥) آدم صبره: الفقر والإحسان،٣٤.

(٦) آدم صبرة : الفقر والإحسان، ص ٩٥.

(٧) آدم صبرة: الفقر والإحسان، ص ٩٦.

(٨) أدم صبرة: الفقر والإحسان، ص ٩١.

بتوزيع الكثير من الكسوة على الأيتام والأرامل المقيدين بالديوان السلطاني[١] وكان هذا عام ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م[٢].

كما قام الأشرف قنصوه الغوري في الرابع عشر من شهر ربيع الأخر عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م بزيارة لمشهد الإمام الشافعي[٣] ومشهد الإمام الليث بن سعد قبل رحيله في حملته ضد العثمانيين وقام وقام بتوزيع الصدقات في المشهدين[٤] .

- سياسية سلاطين الاجتماعية تجاه المنح والكفالات الاجتماعية:

عمل سلاطين المماليك علي توفير بعض الكفالات لبعض الأسر من أرباب المهمشين ، ففي شهر شوال من عام ٨٧٦هـ/ ١٤٧٢م ذكر ابن إياس وقوع حادثة مفادها: "أن نجاراً كان يعمل بالقلعة في بعض طباق المماليك فسقط من مكان عالٍ فمات لوقته وكان له من الأولاد عدداً وهو فقير، فوقف

(١) الديوان أصله فارسي وقد اتخذته الدول الإسلامية في البداية ليدل على سجلات الداخل والخارج وفيما بعد ليدل على المكان الذي يعمل فيه أرباب الأقلام وأخيرًا أطلق على جميع فروع الإدارة وقد كان التنظيم الديواني في عهد المماليك أكثر تنظيمًا وتركيزًا لطبيعة المماليك العسكرية وقد وجدت الدواوين بالقلعة وعرفت بالدواوين السلطانية. المقريزي: الخطط، ج٢، ص ١٣٧، ١٤٩؛ إيمان عطاطه: دور النساء، ص ٤٧٩.

(٢) مجهول: تاريخ الملك الأشرف قايتباي، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمر، المكتبة العصرية ، بيروت، ٢٠٠٣م، ٢٠٠٣م، ص ٤٤؛ الصيرفي: أنباء الهصر ، ص ٢٥٩، ٢٦٠.

(٣) المشهد : اسم مكان من الشهادة والشهيد هو من قتل في سبيل الله –عز وجل– فكان دمه يشهد له بجهاده والذي يظهر أن هذه اللفظة أطلقت أولاً للبنايات التي شيدت على قبور أهل البيت وأول من أطلق على مشهد الحسين بن علي رضي الله عنهما حيث دفن في المكان الذي استشهد فيه ثم على بقية قبور الأئمة حيث أن أكثرهم مات سماً أو قتلاً ثم اتصل ذلك بأهل السنة فبنوا على قبور أئمتهم ومشاهيرهم مباني دعيت أيضاً بالمشاهد كمشهد الإمام أبي حنيفة ومشهد الرفاعي رحمه الله ، ثم صار المشهد تبنى على غير قبور وينسبونها لمن تحقق موته ودفن في بلد أخرى فإذا سئلوا عنها أجابوا بأنهم شاهدوا صاحب هذا الاسم في المنام وفي هذا المكان وأنه طلب ذلك منهم ونشأ في العهد الفاطمي له صبغته السياسية فكان الفاطميون إذا استولى على الشام أظهروا قبوراً ومشاهد ونسبوها إلى أهل البيت وإذا استولى العباسيون أو السلجاقيون أظهروا قبوراً ومشاهد ونسبوها إلى بعض الصحابة لذا فإن كثيراً من مشاهد الفريقين في الشام ومصر مشكوك فيها ؛ محمد أحمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ١٣٩.

(٤) آدم صبرة : الفقر والإحسان، ص ٩٤.

أولاده وعياله للسلطان بقصة يلتمسون منه شيئاً من الصدقة فلما وقفوا إليه أمر لهم بمائة ديناراً وأمر للميت بثوب يكفن فيه وثلاثة دنانير أشرفية يجهزونه بها ، فكان ذلك من محاسن الأشرف قايتباي"[١].

ويذكر أيضاً بعضاً من الكفالات التي كان يقوم بها سلاطين المماليك لأفراد المهمشين أنه كان في شهر رمضان من عام ٨٧٥هـ / ١٤٧١م وضعت امرأة أربعة أولاد في بطن واحدة وهم اثنين من الذكور واثنين من الإناث ووالدهم فقير من حارة باب اللوق فوقف بهم السلطان فلما رآهم قال لأبيهم أنت شاطر ورسم بعشرة دنانير وخمسة أرادب قمح[٢].

- سياسية سلاطين المماليك الاجتماعية تجاه المساجين:

تظهر سياسة المماليك الاجتماعية واضحة من خلال استمرار سياستهم في جذب والتودد للمهمشين فكان سلاطين المماليك ينتهزون فرصة الاحتفال بالمناسبات الدينية والاجتماعية من أجل إدخال الفرح والسرور علي بعض الأسر من الفقراء فيفرجون عن بعض السجناء، ففي سنة ٧١١هـ/١٣١١م مرض الناصر محمد فعندما شفي من مرضه قام بتوزيع ألف دينار من خزانة الدولة لدفع ديون الغارمين المحبوسين بسبب الديون ، كما فعل هذا العمل في عام ٧١٥هـ/ ١٣١٥م حيث قام بإطلاق سراح أهل السجون، وقد كرر ذلك الأمر في عام ٧٤١هـ / ١٣٤٠م فقام بتوزيع مبلغ من الأموال على الفقراء، وقام بإطلاق سراح السجناء الذين كانوا في السجون التي يشرف عليها والي القاهرة ووالي الفسطاط وسجون قاضي القضاة، كما فعل ذلك أيضاً عندما شفي مملوكه يلبغا اليحياوي وأطلق سراح المسجونين وقد دفع نحو ثلاثون ألف درهماً من خزائن الدولة من أجل دفع ديون هؤلاء المساجين [٣].

كما كانت سياسة سلاطين متعاطفة مع السجناء سواء كانوا من النساء أم الرجال مستغلين مجئ بعض المناسبات الدينية أو القومية ويقومون بالإفراج عن بعضهم بهدف التقرب إلى الله سبحانه

(١) بدائع الزهور ، ج٣، ص ٧٠.

(٢) الصيرفي: أنباء الهصر، ص ٤٤٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٧٢.

(٣) آدم صبرة: الفقر والإحسان، ص ١٠٣.

وتعالى وكسب ثقة المهمشين ، فنرى ذلك في عام ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م أطلق السلطان الأشرف برسباي سراح النساء المسجونات[١].

وقام السلطان قايتباي بعرض المسجونين الذين سجنوا بسجن الجرائم ممن سجنهم الشرع فأطلق نحو أربعين نفراً من سجن الجرائم منهم رجلاً يسمى محمد الضيري له نحو ثلاثين سنة سجين وشرط عليه شرطاً إذا وقع منه شيئاً أخر شنقه السلطان –رغم ذلك– في ثاني يوم من أيام إطلاقهم قبض الوالي على شخص منهم وضربه بالمقارع[٢].

كما قام بإطلاق سراح بعض من المساجين وكان بعض أوجه تلك السياسات أنه من سجن بسبب مخالفات شخصية ومالية فإن السلطان لم يطلق لهم سراح ولكنه رسم أن تعمل مصالحة ومن جملة المسجونين بالشرع رجل سجنته زوجته ولها في صحبته عدة سنين، فشكى للسلطان حاله فأمر بمصالحته، وأطلق جماعة من الفلاحين[٣]. كما أطلق السلطان الأشرف قايتباي سراح بعض النساء المسجونات[٤].وفي عام ٨٧٨هـ / ١٤٧٤م قام السلطان بضرب عدد من "أهل يحطيط "من أعمال الشرقية بالمقارع واتهم فلاحيها بأنهم كسر عليهم أموالاً كثيرة ولهم نحو ثلاثة سنين بالمقشرة فشكوا للسلطان ذلك فأمر بالإفراج عنهم[٥].

كذلك الحال مع الأشرف قنصوة الغوري الذي قام بهذا الأمر عدة مرات مع نساء في أعوام مختلفة، وكان هؤلاء النساء مسجونات بسبب الديون أو غيرها[٦]

– سياسية سلاطين المماليك لمواجهة الأزمات الاقتصادية :

وعلي نفس السياق من التودد للمهمشين والفقراء فقد عمل سلاطين المماليك علي حسن استغلال الأزمات الاقتصادية لجذبهم اليهم، فعندما حدثت مجاعة بالبلاد في عام ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤م

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ١٨٢؛ علاء طه: السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٢م ، ص ٤٦؛ إيمان عطاطه: دور النساء، ص ٤٧٠.

(٢) الصيرفي: أبناء الهصر، ص ٤٠٤.

(٣) الصيرفي: أنباء الهصر، ص ٤٠٤.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٣١؛ علاء طه: السجون والعقوبات، ص ٤٦.

(٥) الصيرفي: أنباء العصر، ص ٤٨٤.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٩، ٧٥، ٣٠٣؛ علاء طه: السجون والعقوبات، ص ٤٩؛ آدم صبرة: الفقر والإحسان، ص ١٠٨.

قام الظاهر بيبرس بتجميع الفقراء والمحتاجين وحصرهم ثم قام بعد ذلك بتوزيعهم على الناس من الأغنياء من المماليك والأمراء[١].

كما اهتم بالفقراء اهتماماً شديداً وعمل على تخفيف الشدة عليهم وبدأ ذلك بأن عمل على تسعير السلع لمواجهه ارتفاع الأسعار، من أجل الفقراء وعندما يتم حل المشكلة فإذا به يغمر بلاده بالنداء علي الصعاليك والفقراء بأن يجتمعوا تحت القلعة ونزل بنفسه لدار العدل وأبطل التسعير، وعندما لم يجد منه جدوى استمرت الأزمة فأمر أن يتم البيع من الشون بمقدار خمسمائة أردب لكل يوم تصرف للفقراء والأرامل والضعفاء ، وأمر بإحضار كل من بالقاهرة ومصر من الفقراء ثم قام بالتكافل بعدد منهم ثم وزع على ابنه السعيد بركة وكذلك الأمراء والأكابر كل حسب قدرته واستطاعته [٢].

وبهذا يضرب الظاهر بيبرس أروع الأمثلة في حل المشكلة الاقتصادية والأزمات التي تحل بالبلاد وإذا به يطبق سياسة التقشف ويبدأ بنفسه في حل هذه الأزمة ثم ابنه ثم كبار الأمراء لكي يحذوا حذوه في ذلك، كذلك قام بجمع أصحاب العاهات وقام بنقلهم إلى الفيوم[٣].

ربما هدف بيبرس من هذا العمل عدة أشياء من أهمها ما يلي:

- تخفيف العبء على القاهرة من أصحاب العاهات .
- توفير ما يحتاج إليه أصحاب العاهات من طعام وشراب.
- تخفيف الضغط النفسي بإبعاد أصحاب العاهات المتسولين .

كما اهتم بالأيتام فقام لهم مؤسسة للاهتمام بأمورهم ورعايتهم حتى سن الرشد وكانت تسمى " موضع الحكم"[٤]، وكانت تحت إدارة قاضي قضاة الشافعية وكانت مسئولة عن ضبط مواريث الأيتام من الأغنياء والفقراء وكان متولي ورثتها يسمي" أمين الحكم" وكان يرفع تقريراً لقاضي القضاء[١] .

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٨٨؛ لين بول: سيرة القاهرة، ، ص ١٨٠؛ قاسم عبده قاسم : بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م ، ص ١٦٠.

(٢) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ص ٢٩٧؛ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة عصر سلاطين المماليك ، تحقيق زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ، ٢٠٠١م.، ج٩، ص ١١٩.

(٣) بيبرس المنصوري: التحفة في الدولة التركية تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من ٦٤٨-٧١١هـ ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م ، ص ٥٩.

(٤) موضع الحكم: هي الأموال التي صدر حكم حاكم بإيداعها عند موظف خاص بذلك كأموال اليتامى ولا يمكن يمكن لهذا الموظف أن يأخذ شيئاً منها إلا بأمر القاضي وكثيراً ما كان الحكام يطلبون أخذها عن طريق الدين

وعندما وقع الغلاء بالبلاد في عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م ، وعدم الخبز وتزاحم الناس على الطواحين والأفران واشتد الغلاء وعز القمح جداً واضطربت أحوال الناس فخرج قاضي القضاة الشافعية جلال الدين البلقيني من بيته ماشياً إلى الصحراء ومعه الكثير من أفراد المهمشين حتى وصل إلى تربة الظاهر برقوق فاستسقى هناك بالناس وكان يوماً مشهوداً[٢].

وتكرر الأمر ووقع الغلاء بالبلاد وعز وجود القمح وتزاحمت الناس علي الأفران في طلب الخبز وضج الناس، وكان ذلك في عام ٨٢٩هـ / ١٤٢٥م ، كما قلت الألبان والأجبان من القاهرة واستمر الحال، وتزايد الأمر في كل يوم وافتقر أكثر الأغنياء من الناس من أرباب العيال، فأمر السلطان برسباي بجمع الفقراء وفرق عليه الخبز كل يوم مدة هذه الأزمة[٣]

ومع انتشار الطاعون في البلاد وموت الكثير من أفراد الشعب من صغار المماليك، وعبيد وجواري وغرباء، وتزايد أمر الطاعون حتى انتهى بأن يموت كل يوم من الناس أربعة وعشرون ألف إنسان، فضج الناس من ذلك ، الأمر الذي جعل السلطان برسباي ،يجتمع بالقضاة الأربعة والعلماء والمشايخ واستفتاهم في ذلك وأراد أن يخرج بالناس إلى الصحراء مثلما يفعل في الاستسقاء، فقالوا ما فعل هذا في السالف، ولكن يجب أن تمنع المظالم، ويكثر الناس بالدعاء والاستغفار، وإبطال المكوس، ويرفع الظلم من يد الحكام؛ لعل الله يرفع عنهم هذا الطاعون، ثم نادى السلطان في القاهرة للناس أن يتوبوا من ذنوبهم، ويصوموا ثلاثة أيام متوالية، ويكثروا من الدعاء، والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى[٤]. واستمر هذا البلاء حتى ارتفع وأزيل أوائل شهر شعبان في ليلة واحدة، كأنه لم يكن من قبل[٥].

ولكن القضاة كانوا يرفضون ذلك ولو تعرضوا لغضب الملوك ؛ محمد أحمد دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ١٤٧.

(١) آدم صبرة: الفقر والإحسان، ص ١٠١.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ،ج٢، ص ٢٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٢، ص ١٠٤.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٢، ص ١٣٢.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٢، ص ١٣٣.

وعندما لم يزيد منسوب ماء النيل وكان هذا في عام ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م واستمر ذلك لفترة طويلة، وقل القمح والحواصل وتوقعت الناس وقوع أزمة اقتصادية جديدة خاصتا أن النيل نقص ثلاثة أصابع واشتد قلق الناس لذلك[١].

الأمر الذي جعل السلطان ينادي في الناس للخروج للاستسقاء فطاف المحتسب بمصر والقاهرة وأمر الناس بالخروج وكان خروجهم يوم الجمعة منتصف شهر رجب فخرج الخليفة والقضاة الأربعة وأعيان العلماء والناس جميعاً ومشايخ الصوفية ، ولكن امتنع السلطان عن الخروج، مما شق على الناس ذلك، ثم أحضرت الأطفال من المكاتب وعلى رؤوسهم المصاحف ، وخرجت طائفة من اليهود والنصارى وعلى رأسهم التوراة والإنجيل، وخرج بعض الأبقار والأغنام ، وخرج معظم السواد الأعظم من الرجال والنساء والأطفال الرضع، وحضر القضاة الأربعة ثم قاضي القضاة الشافعي، فخطب بالناس خطبة الاستسقاء ثم صلى الناس صلاة الاستسقاء على الرمل وطال في الذكر والدعاء لله تعالى، وكثر البكاء، وكان يوم تسكب في العبرات ، فلما رجع الناس من الاستسقاء نودي بزيادة النيل أصبع ففرح الناس، ثم نقص ببحر أصبعين فاشتد قلق الناس[٢] ، فبعث السلطان إلى قبرص من أجل شراء القمح ويتم حمله إلى القاهرة ، ويبدو أن هذا الحل لم يكن حلاً قاطعاً[٣].

حيث أخذ سعر القمح يزيد يوماً بعد يوم ثم أخذ في عدم العثور عليه وقل الخبز من الأسواق ووقع الغلاء بجميع السلع حتى في روايا الماء ، وعزت الأجبان والخضر وتشارقت الأراضي جميعها، واستمر الحال على ذلك نحو من سنتين، ووقع القحط في سائر الغلال، وأطلقت الناس البهائم إلى حال سبيلها ، فأمر السلطان بإسقاط الخراج عن الأماكن التي وقع بها القحط [٤].

سياسية سلاطين المماليك تجاه ممارسى العنف والنهابة ومثيرى الفتن :

حرص سلاطين المماليك علي حفظ الأمن والأمان واستقرار الأحوال الداخلية للبلاد. وحماية شعبهم وبخاصة المهمشين والفقراء. فقاموا بالتصدي لكل المتطرفين واللصوص والنهابة، ويتضح تصديهم للمتطرفين والحفاظ على الحياة العامة والاجتماعية في المجتمع المصري ففي عهد الظاهر

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٢، ص ٣٨١.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٢، ص ٢٨١– ٢٨٣.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٢، ص ٢٨٣.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٢، ص ٢٨٣، ٢٨٤.

بيبرس كان هناك امرأة حسناء تسمى غازية كانت تعمل في تزيين العرائس كانت تتزين بأحسن الزينة فيطمع فيها من يراها وتصحبها عجوز ومن يريدها كانت العجوز تأخذهم وتقول لهم لا يمكن أن تذهب مع أحد من يريدها يأتي إلى بيتها خوفاً على نفسها ، وعندما يصل إلى البيت يخرج عليه رجلان فيقتلانه ويأخذوا ما عليه من الثياب وكان ينتقلون من مكان لآخر حتى لا ينكشف أمرهم(١).

وكان هناك سيدة تعمل ماشطة (٢)وكانت مشهورة فجاءت إليها المرأة العجوز وقالت لها عندنا فتاه قد زوجناها ونقصد منك أن تتولي أمرها وتزينيها أحسن زينة، وأن تحضري معك من القماش والمصاغ ما تقدري عليه ونعطيكي من الأجر ما أحببتي ، فجاءت الماشطة بما طلبت منها العجوز وكان بصحبتها جارية لها تساعدها في حمل هذه الأمتعة، وبعد أن وصلت انصرفت الجارية ثم قاموا بقتل هذه المرأة وعندما عادت الجارية لتسأل عن الماشطة أنكروها فما كان من الجارية إلا أن ذهبت لمتولي القاهرة الذي ذهب إلى الدار وسأل فقبض علي العجوز والصبية فاعترفن بما كان يفعلنه ، كذلك اعترفوا على رجلاً طواب كان يحرق الطوب فكان يأخذ الجثث ويحرقها ويختفي أمرها، وبعد أن اعترفا أخذهم متولي القاهرة إلى السلطان فسرعان ما أمر بتسميرهم ، فسمروا جميعاً(٣)

وفي يوم الجمعة من شهر ربيع الأخر من عام ٧٢١ هـ/ ١٣٢١م قام العوام بهدم كنيستين متقابلتين بالزهري وكنيسة بستان السكري وتعرف بالكنيسة الحمراء(٤) كان المصريون الأقباط يقدسون تلك الكنيسة ويحملون إليها سائر ما يحتاج إليه ويقدمون النذور والصدقات فكان بها الكثير من المال

---

(١) ابن أيبك: كنز الدرر، ص ١٠٣.

(٢) هي مهنة تقوم بها المرأة في ذلك العصر فنجدها تقوم بتجميل النساء في الحمامات العامة والبيوت بتصفيف شعرهن في مشط يصنع غالبًا من الخشب أو يصنع من الذهب وهذا الأخير تستخدمه بنات السلاطين والأمراء وهو جزء من ممتلكات تلك البنات، أما في الريف فكانت الماشطة تؤجر النساء ذوات الدخل المحدود الملابس والحلي في مناسبات الزواج وبسبب دخول صاحبة هذه المهنة إلى البيوت فقد أدت إلى مشاكل عديدة من ذوات النفوس الضعيفة كالسرقة والقتل لأجلها فما حصل مثال ذلك ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م. إيساف عبد الحسين : الصناعات والمهن والحرف في مصر المملوكية، ص ١٤.

(٣) ابن أيبك :كنز الدرر، ص ١٠٤؛ العيني: عقد الجمان ، تحقيق محمد محمد أمين ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ٢٠٠٩م ، ج١، ص ٣٨٥، ٣٨٦.

(٤) يحفرون بحيرة يطلق عليها بركة الناصر بالقرب من جسر الأسد الذي يقع في غرب باب اللوق فقلد ذكر لين بول أن الناصر محمد أمر بعدم التعرض لها عندما كان عمال الحفر فأضعفوا أركان الكنيسة وقد اندفع الناس عقب صلاة الجمعة نحو الكنيسة فأتلفوها عن آخرها وكان هذا بغير علم الحكومة ثم ذهبوا إلى كنيسة القديس مينا (الحمرا) وكنيسة العذراء بعد إخراج الراهبات عنوة ثم أشعلوا فيها النيران

والمصاغ وعدد من النصارى ما بين رجال ونساء مترهبات ، ثم انتقل العامة إلى كنيسة يوحنا بجوار السبع سقايات وكانت معبداً جليلاً وكان كل ذلك أثناء أداء المسلمين لصلاة الجمعة وسرعان ما انتقل الخبر إلى القلعة وارتفعت الأصوات بالضجيج فأنكر السلطان ذكر وأمر الأمير أيدعمش لكشف الخبر فلما وصله الخبر انزعج السلطان لذلك وغضب غضباً شديداً ثم طلب من الأمير أيدغمش القبض على العامة وتشهرهم[١] ، بهدف التصدي لتلك الفتنة والقضاء عليها .

لكن وسرعان ما وصل الخبر بخراب كنيسة أخرى هي كنيسة الروم وهنا زاد الخوف على العاصمة القاهرة من النهب والسلب، ثم ورد خبر آخر بتجمع العامة عند الكنيسة المعلقة حيث يوجد مسكن البطارك ، وهذا الأمر زاد من غضب السلطان لدرجة أنه أراد أن يركب بنفسه ثم أرسل الأمير إيدغمش ومعه أربعة من الأمراء وطلب منه أن يجلب إليه العامة خاصة من قاموا بأعمال السلب والنهب؛ ولكن عندما رأى العامة الأمير ومعه الأمراء أسرعوا هاربين ولم يبقى منهم إلا من غلب عليه السكر نتيجة كثرة الخمر، وعندما وصل الأمير إيدغمش للكنيسة المعلقة وجد الكثير من العامة متجمعين فخطب فيهم يهددهم بالقتل إن لم يتفرقوا وظل الأمير ايدغمش عند الكنيسة حتى أذن المؤذن لصلاة العصر فصلى بجامع عمرو بن العاص وترك قرابة الخمسين من الجند مع الوالي على باب الكنيسة[٢].

وقد أشاع العامة أن السلطان هو من أمر بهدم الكنائس في حين ذكر لين بول أن ما حدث من أمر الهدف لم يكن بعلم الحكومة وبالتالي لم يكن من علم السلطان والدليل هو رد فعل السلطان الغاضب لذلك الموقف لكي يستقر ذلك الأمر[٣] ، وربما أشيع ذلك الأمر بين المهمشين من أجل أن يخرج الناس من غير خوف، ومن الغريب في الأمر أنه في نفس الوقت الذي هدمت فيه الكنائس في القاهرة هدمت كنائس أخرى في الإسكندرية وفي البحيرة وفي القوص، وكانت جملة الكنائس التي هدمت في هذه الأزمة نحو الستين كنيسة ثم أعقب ذلك حريق كبير في القاهرة واستمر هذا الحريق حتى يوم الثلاثاء، وكان هذا الحريق شديداً جداً لدرجة أن المقريزي أخذ في وصف هذا الحريق بأنه لم يستطيع أحد الوقوف أمامه حتى شارك بعض الأمراء وعددهم ٢٤ أميراً بأنفسهم في إطفاء الحريق،

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص ٢١٦، ٢١٧؛ لين بول: سيرة القاهرة، ص ١٨٨؛ ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ترجمة: حسن حبشي، دار المعارف، ١٩٦٧، ط٥، ص ٦٥؛ زبيدة عطا: قبطي في عصر إسلامي، الهيئة العامة للكتاب، ط١، ٢٠١٧م، ص ١٦٢.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص ٢١٨؛ زبيدة عطا: قبطي في عصر إسلامي، ص ١٦٢.

(٣)سيرة القاهرة، ص ١٨٨؛ زبيدة عطا: قطبي في عصر إسلامي، ص ١٦٢.

واستمر الحريق ينتقل من مكان إلى أخر وأشيع أن الذي وراء هذا الحريق هم النصارى نكاية في المسلمين لما فعلوه في كنائسهم فكانت توجد في المآذن والمساجد والمدارس[١].

وفي يوم الجمعة تم الإمساك براهبين خارجين من أحد المدارس وقد أشعلوا بها النار ثم الإمساك بهم، وتم الإمساك بأحد النصارى داخل باب الظاهر بالحسينية ومعه كعكة حروق بها نفط وقطران وقد وضعها بجانب المنبر فتم الإمساك به واعترف أن جماعة من النصارى قد اجتمعوا وقاموا بتفريق النفط على جماعة ليدوروا به على المواضع التي تم حرقها[٢].

وهنا تظهر حكمة الناصر محمد فإذا به يشاور الأمراء في هذه الفتنة فيذكر الأمير كريم الدين أن النصارى له بطراك يرجعون إليه وهو يوحنا التاسع، فأمره إلى أن يأتي به وهنا قام السلطان باستدعاء هذا البطراك أن يأتي مسرعاً إلى القلعة فآتاه ليلاً في حماية والي القاهرة خوفاً من العامة فعلمه كريم الدين بقول الراهبين وأحضرهم إليه فاعترفا، وعندما وقف الراهبين أمام السلطان واعترفوا بما فعلوا قال للسلطان هؤلاء سفهاء قد فعلوا كما فعل سفهاء لكم والحكم للسلطان. وهنا قرر السلطان أن يعاقب ابعض العناصر من الأقباط [٣].

ويبدو أن ما أقره من عقوبات لم يكن كافياً لإرضاء العامة الذين أسرعوا بالتجمع حول السلطان وهم يصيحون :" نصر الله الإسلام انصر دين محمد بن عبدالله" ، فما كان من الناصر محمد إلا انه طلب من بعض الأمراء أن يضعوا السيف في العامة ويقتلون كل من يقابلهم من العامة في الشوارع ولكن بعض الأمراء أخذو في التشفع في هذا الأمر مما جعل السلطان يعدل عن أمره ويأمر بالقبض على كل من يوجد من العامة في الشوارع ، فلما وصل هذا الخبر للعامة أسرعوا بالفرار[٤].

وبهذا يتضح مكر ودهاء الناصر محمد في التصدي لهذه الفتنة الكبيرة التي كانت سوف تؤدي على قطبي الشعب المصري – المسلمين والأقباط– وبالفعل تم القبض على نحو مائتي من العامة فأمر السلطان أن بصلب جماعة وشنق جماعة تشنق وتوسيط جماعة وقطع يد الآخرين، وهنا تدخلت الأمراء مثل الأمير بقطمر الساقي ومعه بعض الأمراء حتى أمر السلطان بأن تصلب جماعة منهم

---

(١)السلوك، ج٢، ق١، ص ٢٢٢؛ لين بول: سيرة القاهرة، ١٨٨، ١٨٩.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص ٢٢٢، ٢٢٣؛ لين بول: سيرة القاهرة، ص ١٨٩؛ ترتون: اهل الذمة في الإسلام، ص ٧٤.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص ٢٢٤؛ لين بول: سيرة القاهرة، ص ١٨٩؛ زبيدة عطا: قبطي في عصر إسلامي، ص ١٦٤.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص٢٢٥؛ لين بول: سيرة القاهرة، ص ١٨٩.

على الخشب من باب زويله إلى سوق الخيل، وأن يعلقوا من أيديهم[١] من أجل ألا يثور الشعب مرة أخرى، ويحكم السيطرة على العوام والمهمشين .

وفى سياق آخر فقد صدرت قررات السلطة بتتبع العبيد السود وقبض علي كثير منهم ، وكان ذلك في عام ٨٣٣هـ|١٤٢٥م في عهد الأشرف برسباي ، لكثرة فسادهم في البلاد، وتفاقم أمرهم في القاهرة[٢]، ومع نهاية حكم برسباي تصدى للعبيد المفسدين وقد نادي بعدم خروج أحداً من العبيد من بعد المغرب ولا يحمل سلاحاً ولا عصاه، وكان العبيد قد تزايد آذاهم في حق الناس، كما أمر بمنع المماليك من النزول من الأطباق، فما سمعوا له شيئاً من ذلك[٣].

وفي أثناء حكم السلطان جقمق وقعت حادثة غريبة حيث قام بعض العبيد السود بالذهاب إلى بر الجيزة وأقاموا بها ونصبوا هناك خيمة لهم وعلقوا عليها صنجقاً وجعلوا له سلطاناً ووزيراً ودوداراً وجعلوا سلطانهم يجلس على دكة ويحكم بين العبيد ويطلب من العبيد ما هو معاد لهم، ويوثق بين يديه، ولقد شاع أمرهم بين الناس وقد قاموا بقطع الطريق على الناس وأخذوا في نهب القمح ويأخذونه خراج المقطعين وضيافتهم، فعندما علم السلطان بذلك قام بتعيين تجريدة لهم فتوجهوا إليهم بالمراكب، فوقع القتال بينهم وقصل هؤلاء العبيد وتم القبض على سلطانهم، وتم سجن جماعة منهم، وهرب الباقون ثم نادى السلطان في القاهرة بأن كل من كان عنده عبداً يطلع إلى باب السلسلة[٤] ويقبض ثمنه نحو أربعة ألاف دينار ثم رسم السلطان بسجنهم وبعثهم إلى ثغر الإسكندرية، ومنها توجهوا إلى بلاد آل عثمان، وقطع دابر العبيد الثائرة من مصر[٥].وفي عام ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م وسط في هذا اليوم اثنين من المفسدين قبض عليهم في مصر القديمة[٦].وفي رجب ٩١٥هـ / ١٥٠٩م نادى السلطان بألا يتجاهر الناس بالمعاصي ولا يمشوا بالسلاح بعد المغرب وأن الناس يواظبوا على الصلوات الخمس في الجوامع فسمع من أذن وأخرجت من أخرى أي لم يهتم أحد بكلام السلطان[٧].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص ٢٢٦؛ لين بول: سيرة القاهرة، ص ١٩٠.

(٢) علاء رزق: السجون والعقوبات، ص ١٤٠.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ١٨٠.

(٤)هو أحد أبواب القلعة ، عبدالرحمن محمود عبدالتواب : قايتباي المحمودي ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠م ، ص ١٨).

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٢، ص ٢٥١.

(٦) طه رزق: السجون والعقوبات، ص ١٥٢.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ١٦١.

وفي ظل حكم قانصوه الغوري ، قبض نائب الغيبة بالشرقية على رجل من العربان العصاي يقال له أحمد بن شكر وكان من شرار المفسدين ، فلما قبض عليه سلخ جلده وحاشاه تبناً وأرسله إلى السلطان، وسر الناس بذلك ، وكان من كبار المؤذيين ، وكان يشوش على المسافرين فما تأسف عليه أحد من الناس[١].وفي سنة ٨٢٣هـ / ١٤١٥م في شهر شعبان دعي على ناصر الدين بن أمير أخور بأنه قتل رجلاً ظلماً بغير مستند شرعي فحكم القاضي بقتله بين يد السلطان فأمر السلطان بأن يقتل في المكان الذي قتل فيه هذا الرجل وعلى الهيئة التي قتل بها[٢].

كما أمر السلطان قايتباي بتوسيط إنسان يسمى ابن الزردقاش سرق سراجاً فضة وغير ذلك وتكرر منه ذلك، وبعد عرضه على السلطان وحلمه عليه عنفه وحلف له أنه وسط فعاد فرسم بتوسيطه فوسط بباب النصر وشنق، وكان سبب ذلك إيذاؤه شخص خياط كان يعاونه على الحرام والفساد ويخيط له جميع ما يسرقه ويبيعه له فجزي بذلك[٣]،كما قبض في هذا الشهر علي اثنين من المفسدين بمصر القديمة وتم صلبهم ليكونوا عبرةً لغيرهم من المفسدين أومن يعاونهم على الشر والأذى وقتل النفس[٤].

وفى ذات الإطار فقد تم القبض على فرد زعموا أنه ينبش القبور على الموتى ويسرق أكفانهم فأمر السلطان بسلخ وجهه وهو حي فسلخوه من عند رقبته وألقوه على صدره وصار عظم رأسه ظاهراً وطافوا به القاهرة ثم علق على باب النصر وظل معلقاً، ثم نادى الحفارين بحفظ أكفان الموتى[٥].

السلطة ومواجهة الإنحرافات الأخلاقية :

كان الانحراف الأخلاقي أحد الأمراض الاجتماعية الظاهرة بالمجتمع المصري في العصر المملوكي وكان له أثراً سيئاً على أفراد الطبقات الشعبية ،الأمر الذي جعل الكثير من سلاطين المماليك يتصدون لهذا المرض حفاظًا على المجتمع المصري الإسلامي أو بهدف الظهور أمام الشعب المصري بأنهم دعاة النبل والفضيلة وأنهم محبين للشريعة المحمدية والحفاظ على المجتمع الإسلامي النقي، فبهذا يكسبوا ود وعطف الناس جميعهم، ولم يكن انتشار الدعارة والرذائل مقتصراً على القاهرة وضواحيها فقط، فقد ذكر المقريزي أنَ الأرمن قد اتخذوا من المنطقة التي عرفت باسمهم وكراً لبيع الخمور والدعارة، فقال

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٢٩.

(٢) طه رزق: السجون والعقوبات، ص ١٥٩؛ الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، ٢٠١٠م ، ج٢، ص٤٧٦.

(٣) الصيرفي: أنباء الهصر ، ص ٢١٠.

(٤) الصيرفي: أنباء الهصر، ص ٢٠.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٩١.

"حتى أن المرأة إذا تركت أهلها أو زوجها أو الجارية إذا تركت مواليها أو الشاب إذا ترك أباه ودخل عند "الأرمن" في خزانة البنود لا يقدر أن يأخذها منه ولو كان من كان"[١].

ليس هذا فحسب دليلاً على وجود هذه الرذائل التي تتنافى مع العادات والتقاليد المصرية والإسلامية، فقد وصف ابن الفرات ذلك قائلاً: "إن اجتماع النساء والرجال في الموالد قد يؤدي لانتشار هذه الرذائل أيضاً وذكر أن اختلاط الرجال بالنساء في الطرقات بين مدينتي القاهرة والفسطاط وشوارعهما أثراً كبيراً في ظهور البغاء، فذكر في بعض حوادث عام ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م بسبب اجتماع الرجال والنساء في أحد الموالد لدرجة أدت لشيوع الفسق بينهم بصورة مزرية وواضحة وكان هذا المولد من أحد المزارات المهمة التي يقصدها أهالي مدينتي القاهرة والفسطاط وضواحيها[٢].

وقد وجد في صباح اليوم التالي لهذا المولد عدد كبيراً من جرار الخمر المكسورة، علاوة على اختلاط أعداداً كبيرة من الرجال والنساء ببعضهم ، مما أدي لانتشار ما كان عليه من: انتشار الزنا والفجور في ليالي هذا المولد وتجاهرهم بالمعاصي وتفاخرهم بها[٣].

ولقد كان لظهور تلك الرذائل وهذا التدهور الأخلاقي أن قام بعض سلاطين المماليك والأمراء بموقفً محموداً للتصدي لهذه الحوادث فمنها : عندما أمر السلطان برقوق بمنع النساء من الخروج يوم العيد للمقابر وهدد من تخالف ذلك المرسوم من النساء بتوسيطها وليس هذه هي فقط بل والمكاري[٤] الذي ينقلها إلى المقابر ، وكان بهذا يريد الحد من الاختلاط المتوقع بين الرجال والنساء في المقابر[٥]، المقابر[٥]، والحد من انتشار الرذائل بين الطبقات الشعبية.

ولم يكن تجمع النساء واختلاطهم بالرجال عند المقابر فقط فقد لوحظ أن من يريد الاختلاط ينتهز أدني فرصة لتجمع الناس ليجعل منها ذريعة لانتشار تلك الرذيلة والاختلاط وما يترتب على ذلك من فساد وتدهور أخلاقي، حتى وإن كانت تلك المناسبة مناسبة دينية، فقد ذكر المقريزي عن ذلك

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص ٦٤٠.

(٢) تاريخ ابن الفرات ، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت، ١٩٣٩م ، ج١، ص٢٧

(٣) ابن الصيرفى: نزهة النفوس ، ج١، ص ١٦٩.

(٤) المكاري لغة مصدرها كر والكروة والكراء أجر المستأجر والمكاري والكاري الذي يكري دابته والجمع أكرياء لا يقصر على ذلك، أما في المصطلح فقد عرف الرحالة الألماني فون هارف Makaria بأنه ما يؤجرونه من الدواب للناس بأجر، لمزيد من التفاصيل راجع ابن منظور: لسان العرب، ص ٣٨٦٦، دار المعارف القاهرة، ١٩٨١م.

Van harff (amold) the Bilgrumage of amold van harff, trans and adited by malcom latts, 1978, P 96.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ٢٦.

فيقول: " عندما منع المحتسب في عام ٨٢٥هـ/١٤٢١م النساء من الجلوس عند الحوانيت أو المبيت بها لمشاهدة المحمل في اليوم التالي وهو الأمر الذي يؤدي إلى الاختلاط السافر بين الرجال والنساء[١] ، وبهذا أرادت السلطة الحاكمة في مصر القيام بأعمال وقائية لمنع حدوث تلك الانحرافات الأخلاقية ، واستمراراً لتلك الأعمال قام المحتسب بحملات تأديبية لمهاجمة أوكار الفساد وأماكن اللهو ومستودعات الخمر والحشيش وغيرها[٢] ، كما قام السلطان برسباي بإصدار مرسوم بمنع الناس من الخروج للمقابر، ففي عام ٨٣٣هـ /١٤٢٩م نودي بمنع النساء من الخروج للمقابر وتوعد المكاري بالشنق والتعزير[٣] للمرأة [٤]،الأمر الذي جعل والي القاهرة يأمر بمنع النساء من الخروج للمقابر في يوم الجمعة للحد من اختلاطهن بالرجال وما يترتب على ذلك من الفساد والزنا[٥].

ولقد سعى الظاهر بيبرس للحد من هذا الانحراف الأخلاقي بالقضاء على مهنة البغايا فكان هناك "مكس مقرر على البغايا: وكانت المسؤولة عنة تسمي "ضامنة المغاني"، والغريب في الأمر أن صاحبة هذه الوظيفة كانت بمثابة النقيب لمن يحترف الدعارة ولكنها كانت مسئولة أيضاً عن حرف نسائية أخرى، بل ومتناقضة مع هذه الحرفة، إذا كانت صاحبة المغاني مسئولة عن المغنيات والواعظات والقارئات والندابات فضلاً عن مسئوليتها عن بنات الليل[٦] ، فقام بإسقاطه ومنع البغاء بالقاهرة وسائر البلاد، كما أنه قام بحبس البغايات حتى يتزوجن واشترط ألا يزيد في مهورهن عن

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص ٣٨٠.

(٢) قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨،ط١،ص ٧٠ .

(٣) التعزير هو التأديب، من عزر، يعزر، تعزيز، ولغة عزر فلان أي لامه وأدبه ، واصطلاحاً التعزير هو العقوبة التي يفرضها الحاكم على المذنب لتأديبه بما راه مناسباً من الضرب مما دون الحد الشرعي، فهو عقوبة غير محددة، لمزيد من التفاصيل انظر: ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، ج٣، ص٤٢٩.

(٤) ابن حجر العسقلاني: أبناء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، ج٣، ص٤٢٩.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ١٤٢.

(٦) ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر، ج١، ص ١٢٧؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م ، ص ٣٣٩.

أربعمائة درهم، وأمر بنهب الخانات التي كان يقيم بها أهل الفساد وتم سلب أموالهم[١] ، كذلك أبطل الظاهر بيبرس ضمان الحشيشية [٢] وأمر بتأديب آكلها [٣].

كما قام بالقضاء على نبات الخشخاش[٤]، وبهذا يظهر الظاهر بيبرس حرصه الشديد على الحفاظ على الأخلاق العامة ، واستمراراً لتلك الأعمال قام بهدم بيوت المسكرات وكسر ما فيها من الخمر وأخذ في القضاء على جميع الرذائل والمنكرات في سائر الجهات المصرية، وذكر ابن إياس ذلك فيقول: " تطهرت في أيام سائر البقاع وامتنع الناس من ذلك غاية الامتناع لدرجة أن والي الشرطة عندما وجد رجل يسمى ابن الكازروني وهو مسكراً فشهره في القاهرة وعلق في عنقه الجرة والقدح ثم تم صلبه على باب النصر فعندما رأى أرباب الخلاعة ما جرى على ابن الكازروني أذعنوا بالسمع والطاعة[٥]، وفي نفس الوقت أمر بيبرس بنفي كثير من أرباب الفساد خارج البلاد[٦] .

وفي نفس السياق عمل بيبرس على الحفاظ على الآداب العامة ففي سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م نودي بالقاهرة ومصر أن النساء لا تتعمم ولا تتزين بزي الرجال ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة أيام نزع ما عليها من الكسوة[٧] ، ونتيجة لتلك الأفعال التي قام بها بيبرس وتأثيرها في الطبقات الشعبية ، جعل الكثير من سلاطين المماليك تسير علي نهجه وخير مثال لذلك الناصر محمد في ولايته الثالثة ، فبعد عزل بيبرس الجاشنكير قام السلطان الناصر محمد بإبطال سائر الخمارات بديار مصر، ونادى بذلك

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٧٨ ؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٢م ، ص ٢٢٧.

(٢) الحشيش: انتشرت زراعة شجرة الحشيش في بركة الرطلي وأرض الطبالة وولع بها أهل الخلاعة ولعًا كبيراً وتظاهروا بها من غير احتشام وكان السبب وراء ذلك هو سماح الدولة بزراعته نظراً لما يعود عليها من أموال نتيجة فرض الضرائب على تلك السلع بالإضافة إلى الحشيش انتشر الأفيون الذي عرفه المصريين في العصر المملوكي وظل سائدًا في ذلك . المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م .، ج٢، ص ١٢٦ ؛ سعيد عاشور : المجتمع المصري، ص ٢٣٠.

(٣) ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص ٣٠٠؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ٢٢٩.

(٤) الخشخاش نبات تستخرج منه مادة الأفيون ويعرف باسم أبي النوم. محمد عبدالعزيز مرزوق: الناصر محمد بن قلاوون، محمد بن قلاوون ، سلسلة أعلام العرب ٢٨، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ، [د.ت] . ط١، هامش ص ١٨٦.

(٥) بدائع الزهور، ج١، ص ٣٢٧؛ لين بول: سيرة القاهرة، ص ١٨٠.

(٦) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٧٦؛ لين بول: سيرة القاهرة، ص ١٨٠؛ علاء طه: السجون والعقوبات، ص ١٤٠.

(٧) المقريزي: السلوك ، ج١، ق٢، ص ٥٣٥.

الأمير سيف الدين الشيخمي أحد الأمراء البرجية وقيل إليه ألا يراعي أحداً من خشداشيته ولا يدع بيتاً بمصر والقاهرة ولا بيتاً من بيوت المسلمين ويبلغه أن فيه خمر إلا يسكبه ويكسر ما فيه، وكان الشيخمي يتميز بالشدة وقوة البأس وطلب إلى القاهرة ومقدميها وأصحاب الأرباع وسألهم عن مواضع الخمر فلم يجيبوا وأخفوا سائر المواضع، فقام جماعة منهم بالمقاريع حتى دلوه على عصر العنب أو من عنده خمراً وكتب أسمائهم فكان فيهم عدداً من الأمراء والكتاب والأجناد والتجار وأخذ في الكبس على بيوتهم وتفتيشها فيقول المقريزي "فكان الرجل لا يشعر إلا والمماليك قد هجموا عليه ومعهم النجارون والبناءون لتفريغ مطامير الخمر وإخراجها فإذا ظفروا بها كسروا سائر ما فيها[١].

ورغم حسن النوايا من الناصر محمد بن قلاوون ورغبته في القضاء على المفاسد بالدولة والحفاظ على العدل والأخلاق العامة كان لتلك الأعمال بعض الأثار السيئة فقد ذكر المقريزي عن ذلك فيقول: "أن حصل لبعض الناس بلاء شديد ، ومنهم من فضح أمره ، ومنهم من نهبت من بيوتهم أشياء كثيرة بسبب تجمع العامة، وأخذ الناس يدلون على بعضهم البعض، وتشفي جماعة من أعدائهم[٢].

كما كان حريصاً في القضاء على الفواحش والمنكرات فقد قام بإلغاء ضريبة حقوق القنيات وهي ما يجمع من الفواحش والمنكرات والضريبة المقررة على كل جارية أو عبد عند نزوله بالخانات لعمل الفاحشة[٣]، ونتيجة لتلك الأفعال الحسنة وتشدد الناصر محمد في التصدي للفساد الأخلاقي فقد سار علي دربة أمراء الدولة ويظهر ذلك عندما زينت القاهرة ومصر في شهر رجب لإدارة محمل الحج علي العادة فمنع صدر الدين أحمد بن العجمي المحتسب النساء من الجلوس على حوانيت الباعة ، وتشدد في ذلك فامتنعت النساء عن الجلوس، وكان من العادة أن تجلس النساء في صدر النهار ويبيتن بالحوانيت حتى ينزلن المحمل من الغد فيختلط النساء بالرجال لمدة يومين وتقع أمور غير مرضية ، فيعد ذلك من أفضل ما صنع[٤].

كما أصدر السلطان الغوري الأوامر بأن لا تدخل امرأة صحبة العسكر ومنعوا من ذلك[٥]. وقام بإغلاق أحد الرباع[١] الموجودة بجوار قنطرة الموسكي[٢]. بعد ضبط عدد كبير من النساء داخلها داخلها يمارسن الزنا وقام بتشهيرهن بشوارع مدينة القاهرة بعد ذلك[٣].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢، ق١، ص ١٥٣؛ محمد عبدالعزيز: الناصر محمد بن قلاوون، ص ٢٧١.

(٢) السلوك، ج٢، ق١، ص ٥٤.

(٣) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ٣٢٧.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص ٦١٤.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ١٤٨.

وفي عهده ألقى والي القاهرة بالقبض على إحدى النساء والتي كانت تقيم في الإسكندرية بعد تورطها في فتح بيتها للدعارة والبغاء ثم تم نفيها للشام بعد أن افتدت نفسها بمبلغ خمسمائة ديناراً[٤].

كما كان على السلاطين وأمراء المماليك تفقد المنتزهات ومنع اختلاط الرجال بالنساء خصوصاً في الفترات التي ينخفض فيها منسوب نهر النيل وحدث ذلك عندما لجأ والي القاهرة في عام ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م إلى منع النساء البغايا من ممارسة الزنا وكسر جرار الخمور ومصادرة الحشيش في تلك المتنزهات العامة، وكانت تلك الإجراءات الوقائية نتيجة لانخفاض منسوب نهر النيل إلى أحد عشر ذراعاً في تلك السنة[٥].

كما قام صدر الدين محتسب القاهرة في عام ٨٢٢هـ / ١٤١٨م بتتبع أماكن الفساد بنفسه ومعه والي القاهرة فأراق نحو آلاف من جرار الخمر وكسرها ومنع النساء من النياحة على الأموات ومنع من التظاهر بالحشيش، ومنع البغايا عن الوقوف وطلب الفاحشة في الأسواق [٦].

ولقد نادى السلطان برسباي بمنع النساء بالخروج إلى المقابر في يوم العيد[٧]، وفي نفس العام تتبع السلطان برسباي البغايا وألزمهم بالزواج وطلب ألا يزيدوا في مهورهن على أربعمائة درهم من الفلوس تعجل منها مائتي وتؤجل مائتي ونودي بذلك فلم يتم منه شيئاً[٨].

وربما أراد برسباي بهذا أن يحذو حذو الظاهر بيبرس فيما فعله مع البغايا ولكن ذكر المقريزي أن لم يتم هذا الشيء منه.

---

(١) وهي جمع خان وهي عبارة عن مساحة مربعة يحيط بها سور وله فناء تحيط بها المخازن أو الإسطبلات لخدمة التجار المسافرين ودور علمي واحد في العادة يحتوي على حجرات النوم على الرغم من أن كلمة فندق تطلق على الفنادق والمخازن الخاصة بالتجار الأجانب بالإسكندرية.
سمير حامد: من مظاهر المساوئ الاجتماعية في مصر خلال العصر المملوكي في دولة المماليك الثانية البغاء والشذوذ الجنسي ، من مجلة كلية الآداب، جامعة بنها، مجلد ٣٨، ج٢، هامش رقم ٤ ، ص ١٢٥١.

(٢) تنسب هذه القنطرة إلى الأمير عز الدين موسك بن حكما وهو أحد أقارب السلطان صلاح الدين الأيوبي وتقع هذه القنطرة على الخليج الحاكمي بالقاهرة.؛ سمير حامد: من مظاهر المساوئ الاجتماعية في مصر خلال العصر المملوكي في دولة المماليك الثانية البغاء والشذوذ الجنسي، من مجلة كلية الآداب، جامعة بنها، مجلد ٣٨، ج٢ ، ص ١٢٥١.

(٣) المقريزي: الخطط، ج٢، ص ٤٩٣.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ١٤٨.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ١٦٣.

(٦) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص ٤٧٦.

(٧) ابن إياس: البدائع، ج٢، ص ٨٤.

(٨) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص ٦٦٦.

كما كانت لبعض سياسات سلاطين المماليك في ردع العناصر المنحرفة والتي تورطت أخلاقيًا مثل ما حدث في سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م عندما انقلب وثار السلطان جقمق علي العبيد الذين كانوا بالقاهرة لكون بعضهم هجم على حمام النساء بمنية عقبة فأفتى بعض الفقهاء بأنهم يحاربون فأمر بمسكهم وإيداعهم السجن(١).

ولقد حرص سلاطين المماليك طيلة الوقت الوقوف بالمرصاد ضد هذا الفساد الأخلاقي والحد منه بكل ما أوتوا من قوة ويتضح ذلك من موقف السلطان الغوري عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م عندما اشتهرت قضية زنا في مصر تعود أحداثها أن شخصًا يقال له غرس الدين بن خليل متزوج من امرأة حسناء وكان هناك شخص يدعى نور الدين علي المشالي هوى تلك المرأة ومازال بها حتى هوته فاستغل فرصة خروج زوجها للمبيت خارج المنزل فأرسلت إلى نور الدين لكي يقيم معها الفاحشة في بيتها وعندما رآها رجل يدعى شميس ذلك أرسل إلى زوجها وأخبره بوجود نور الدين المشالي في بيته فأسرع زوجها إلى البيت فوجدهما في وضع الفاحشة فقام بإغلاق الباب عليهما وذهب مسرعًا إلى بيت حاجب الحجاب وقص عليه ما جرى فاعترف نور الدين هذا بأمر الزنا وتم كتابة محضرًا بذلك ثم قام حاجب الحجاب بتعرية جسد نور الدين وضربه ضربًا مبرحًا حتى كاد أن يهلك ثم قام بضرب المرأة على أكتاف المشاعلية(٢)، ثم أمر بتشهيرهما في القاهرة على حمار ثم حكم على المرأة بمائة ديناراً فقالت ليس معي شيء وكل المال مع زوجي فعندما طلب المال من الزوج رفض، وفي ذلك الوقت صعد ابنه إلى السلطان الغوري وقص عليه القصة وما حدث، فطلب المحضر من حاجب الحجاب فرد عليه قائلاً أن أثبته عندي ، وتم رجمها فانصاع السلطان لكلام الحاجب بهدف إظهار العدل لأنه وقعوا في الزنا وكان هناك أحد نواب الشافعية الذي انحاز لصف نور الدين المشالي فسأل سؤال للعلماء يريد فيه الفتوى بأنه إذا اعترف الشخص بالزنا ثم رجع عن ذلك فهل يقام عليه حد الرجم فأجاب معظمهم أنه يسقط الجلد فعلم الغوري بذلك فغضب غضبًا شديدًا وقال يا معشر المسلمين رجل يطلع إلى بيت رجل ويفجر بزوجته ويقبض عليه على سريره مع زوجته ويعترف بذلك وتقولون بسقوط حد الرجم فأمر بعقد مجلس للفقهاء الأربعة وعرض عليهم القضية فأفتوا بحق الرجل في الرجوع ويسقط

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ج٢، ص ١٠٠.

(٢) المشاعل جمع مشعل وهي آلة من حديد كالقفص مفتوح الأعلى وفي أسفله خرقة توقد فيها النار بالحطب وتحمل ليلاً للإضاءة والذين يحملونه يطلق عليهم مشاعلة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص ١١٣١؛ إيمان عطاطة: دور النساء، هامش ص ٤٦١.

عنه حكم الزنا فغضب السلطان وقام بعزل القضاة، وحكم على المرأة والرجل بشنقهما في حبل واحد، وتم ذلك بالفعل[١].

ونرى في ذلك الموقف رجوع السلطان الغوري إلى القضاء والفقهاء والشرع ولكن عندما وجد أن الفقهاء قد اختلفوا في الأمر وأن الرجل سوف ينجو من فسقه مع المرأة فهنا خاف من أن يسلك الكثير من الطبقات الشعبية هذا المسلك مستغلين رأفت الدين وحلم الشرع بهم فأراد أن يكون حازمًا وقاسيًا في الحكم حتى يرتدع كل من تسول له نفسه إقامة الفسق فيؤدي بذلك إلى الحفاظ على المجتمع من التدهور والانحلال الأخلاقي.

وفى الأخير فإن الحس الإجتماعى لسلاطين المماليك كان أحد أهم أدوت الإدارة والسلطة المملوكية ، فقد أراد صانع القرار المملوكى أن يظهر دائماً بمظهر القريب من الشعب، فقد حرصت السلطة المملوكية على الظهور بمظهر الحامية والراعية والقريبة من الشعب وطلباته وأوجاعه ، وقد كان التعامل مع الشعب وطبقاته المهمشة علاقة طرف المعادلة بالطرف الآخر وهو السلطة المملوكية (السياسية والاجتماعية) التى أفرزتها إنجازات حضارية وتعقيدات سياسية، جعلت من الطبقة الشعبية نموذجاً متفرداً فى الحضور فى ذهن وسياسات صانع القرار فى مصر فى العصر المملوكى إما منحاً أو تضيقاً أو استقطابا أو خوفاً أو تقية .

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٤٠- ٣٥٠؛ ابن الحمصي: حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق: عبدالعزيز حرفوش، دار النفائس ، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٣، ص٤٩٧، ٤٩٨؛ إيمان عطاطة: دور نساء العامة، ص ٤٦١، ٤٦٢.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً المصادر :

ابن إياس: (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس) ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م .

١. بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ط٣ ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، ٢٠٠٨م .

ابن أيبك الدوادارى: (أبو بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري) ت بعد ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م

٢. الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية وهو الجزء الثامن من كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق أولرخ هارمان، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٩٧١م .

بيبرس المنصوري: (ركن الدين بيبرس بن عبدالله المنصوري) ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م

٣. التحفة الملوكية في الدولة التركية تاريخ دولة المماليك البحرية في الفترة من ٦٤٨-٧١١هـ ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م .

٤. زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة عصر سلاطين المماليك ، تحقيق زبيدة محمد عطا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ، ٢٠٠١م.

ابن تغري بردي: (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي) ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م

٥. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق حسين نصار، ط٢ ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، ٢٠٠٥م .

ابن الجزري: (شمس الدين أبي عبدالله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري) ت ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م.

٦. تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٨م .

ابن حجر العسقلاني: (شهاب الدين أحمد بن على بن محمد) ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م

٧. إنباء الغمر بأنباء العُمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠١١م.

ابن الحمصي : (أحمد بن محمد بن عمر الأنصاري) ت ٩٢٤هـ/ ١٥٢٧م .

٨. حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عبد العزيز فياض حرفوش، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٠م.

ابن دقماق: (إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى) ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م .

٩. الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ، دار الآفاق العربية ، بيروت ، [د. ت] .

١٠. الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، القاهرة ، ١٩٨٥م .

السخاوي: (العلامة الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م .

١١. التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق لبيبة إبراهيم مصطفى، نجوى مصطفى كمال، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥م .

شافع بن علي: (ناصر الدين ابن رافع بن عبد الظاهر السعدي) ت ٧٣٠هـ / ١٣٢٩م

١٢. حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز عبدالله الخويطر، ط٢، الرياض ١٩٨٩م .

١٣. الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت ، ١٩٩٨م .

ابن شداد : عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد) ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م

١٤. تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد خياط، النشرات الإسلامية ٣١، فرانز شتاينر بفيسبادن للنشر، ١٩٨٣م .

الصيرفي: (الخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي) ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م

١٥. إنباء الهصر بأنباء العصر، تحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.

١٦. نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ، ٢٠١٠م .

ابن عبد الظاهر: (محي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر السعدي) ت ٦٩٢هـ-١٢٩٢م .

١٧. الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦م .

العيني: (بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى) ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م .

١٨. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (حوادث ٦٤٨- ٧١٢هـ/١٢٥٠-١٣١٢م) ، تحقيق محمد محمد أمين ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ٢٠٠٩م .

١٩. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (حوادث وتراجم ٨١٥هـ -٨٢٤هـ)، تحقيق عبد الرزاق الطنطاوي القرموطي، مطبعة علاء للنشر، القاهرة، ١٩٨٥م .

ابن الفرات: (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات) ت ٨٠٧هـ /١٤٠٤م

٢٠. تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت، ١٩٣٩م .

المقريزي: (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي) ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م

٢١. السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ج٢ تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٧م .

٢٢. السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ج٤ تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة. ٢٠٠٦م .

٢٣. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م .

المناوي: (محمد عبد الرءوف بن تاج العارفين بن علي المناوي) ت١٠٣١هـ/ ١٦٢١م .

٢٤. النقود والمكاييل والموازين، تحقيق رجاء محمود السامرائي، سلسلة كتب التراث (١٠٧)، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، العراق،١٩٨١م .

ثانياً : المراجع العربية :-

زبيدة محمد عطا :

١.قبطي في عصر اسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠١٧م.

سعيد عبد الفتاح عاشور :

٢. المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٢م.

٣. العصر المماليكي في مصر والشام، ط٢، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٧٦م .

عبد الرحمن زكي :

٤. قايتباي المحمودي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠م

علاء طه رزق :

٥.السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

قاسم عبده قاسم :

٦.عصر سلاطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م .
٧.بعض مظاهر الحياة اليومية في عصر سلاطين المماليك، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.
٨. النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨
٩.أهل الذمة في العصور الوسطى، دراسة تاريخية، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م.

محمد أحمد دهمان :

١٠. معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر ، دمشق ،١٩٩٠م .

محمد سهيل طقوش:

١١. تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام دار النفائس، بيروت، ١٩٩٧م .
١٢. تاريخ الدولة الصفوية في إيران ٩٠٧- ١١٤٨هـ/ ١٥٠١- ١٧٤٢م، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٦.

محمد عبد العزيز مرزوق :

١٣.الناصر محمد بن قلاوون ، سلسلة أعلام العرب ٢٨، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ، [د.ت] .

ثالثاً : المراجع المعربة :

أدم صبرة :

١. الفقر والإحسان في مصر عصر سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ،٢٠٠٣م

ترتون:

٢. أهل الذمة في الإسلام، ترجمة: حسن حبشي، دار المعارف ، ١٩٦٧.

ستانلي لين بول:

٣. سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١١م .

السير وليم موير :

٤. تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين، سليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة ، ١٩٩٥م .

رابعاً المقالات والبحوث :

سمير حامد:

١. من مظاهر المساوئ الاجتماعية في مصر خلال العصر المملوكي في دولة المماليك الثانية البغاء والشذوذ الجنسي، من مجلة كلية الآداب، جامعة بنها، مجلد ٣٨، ج٢.

خامساً : الرسائل الجامعية :-

إيمان عطاطة:

١. دور نساء البلاط في مصر في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا، ٢٠١٥م.

٢. دور نساء العامة في مصر في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة طنطا، ٢٠١٨.

سادساً : المراجع الأجنبية :

Arnold Von Harff :

2. The Pilgrimage of Arnold Von Harff Knight, Translated From The German and Edited with Notes and An Introduction by Malcolm Letts F.S.A,London,1946.